كيف يجب أن أعيش
في هذا العالم؟

تمدَّنا كُتيِّبات "**أسئلة مصيريَّة**" بمقدمة مُوجزة لبعض الحقائق المسيحيَّة المُحدَّدة. تشمل هذه المجموعة الكبيرة كُتيِّبات مثل:

هل هذه هي الأيام الأخيرة؟

هل يتحكَّم الله في كل شيء؟

كيف يَسْري عليَّ ناموس الله؟

هل يمكنني معرفة مشيئة الله؟

ماذا أفعل بذنبي؟

ما هي الحكمة الكتابيَّة؟

هل يمكنني الحصول على الفرح في حياتي؟

ما هي العلاقة بين الكنيسة والدولة؟

هل تغيِّر الصلاة شيئًا؟

هل يمكنني أن أتأكَّد من خلاصي؟

كيف ينبغي أن أفكّر في المال؟

ما هو الثالوث؟

من هو يسوع؟

كيف يجب أن أعيش في هذا العالم؟

أسئلة مصيريَّة

أر. سي. سبرول

© 2010 by R.C. Sproul.
Originally Published by Reformation Trust Publishing (a division of Ligonier Ministries), under the title *How Should I Live in This World?* Translated by permission. All rights reserved.
ISBN: 978-1-64289-040-2

اسم الكتاب: كيف يجب أن أعيش في هذا العالم؟
المؤلف: أر. سي. سبرول
© 2022 خدمات ليجونير
الناشر: خدمة ذهن جديد
www.zehngadid.org
مسؤول الخدمة والمشرف على الترجمة: الدكتور/ ياسر فرح
المطبعة: سان مارك
رقم الإيداع: 2022/9570
الترقيم الدولي: 978-977-94-1647-2

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة. يُمنع إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب، دون إذن خطي مسبق من الناشر، كما يُمنع تخزينه بأي شكل يسمح باسترجاعه وإعادة استعماله. ويُمنع نقله بأي شكل من الأشكال وبأيَّة وسيلة، سواء كانت إلكترونيَّة، آليَّة، بالاستنساخ الفوتوغرافي أو بالتسجيل الصوتي وخلافه. ويُستثنى من هذا حصريًا الاقتباسات القصيرة الموضوعة بين هلالين مع ذكر مصدر الاقتباس بالتوثيق العلمي.

اقتباسات النصوص الكتابيَّة مأخوذة من ترجمة البستاني - ڤاندايك، إلا إذا أُشير إلى غير ذلك.

Printed in Egypt

المحتويات

الفصل الأول: الأخلاق والآداب العامَّة ١٣
الفصل الثاني: الأخلاقيَّات المُعلَنة ٤١
الفصل الثالث: الناموسيَّة ومذهب ضد الناموس ٥٣
الفصل الرابع: أخلاقيَّات المذهب المادِّيِّ ٩١
الفصل الخامس: التجديد يحدث في الحال ١٢١
الفصل السادس: أخلاقيَّات الإجهاض ١٤١
الفصل السابع: الأخلاق والضمير ١٦٥

تقديم

تبدأ تقريبًا كلُّ مناقشة كبيرة تدور هذه الأيَّام حول موضوع الأخلاقيَّات بتحليلٍ للوضع الفوضويِّ السائد في الثقافة الحديثة. حتَّى الكُتَّاب والمفكِّرون العلمانيُّون يدعون إلى نوعٍ من الاتِّفاق المبدئيِّ بخصوص السلوك الأخلاقيِّ، إذ يقولون إنَّ «هامش خطأ» الإنسانيَّة ينكمش مع كلِّ يومٍ جديد. وأصبح بقاؤنا على المحكِّ.

يشير هؤلاء «الأنبياء الذين يتنبَّأون بالنهاية» إلى أنَّ قدرة الإنسان التخريبيَّة قد ازدادت من عام

١٩٤٥ إلى عام ١٩٦٠ بنفس النسبة التي زادت بها من الأسلحة البدائيَّة في العصر الحجريِّ وحتَّى إلقاء القنبلة الذريَّة على هيروشيما. لم يوفِّر ذوبان ثلوج الحرب الباردة كثيرًا من الراحة. أصبح لدى كثيرين من الدول أسلحة نوويَّة الآن أو أصبحت على وشك امتلاكها. ما الذي يمنعهم، إلى جانب الأخلاق، من استخدام هذه الأسلحة؟

ويتفاقم هذا الواقع الصارخ بسبب غزارة الظلم الاجتماعيِّ في عديدٍ من المجالات، وظهور الإرهاب الدوليِّ، والانحدار العامِّ في القيم الشخصيَّة والاجتماعيَّة. مَن هو الذي ينبغي أن يقول ما هو الصواب والخطأ؟ تسرد إحدى المجلَّدات التقنيَّة، وهي «النظريَّات الأخلاقيَّة المعاصرة» لتوماس إي هيل،[1] أكثر

[1] Thomas E. Hill. *Contemporary Ethical Theories*.

من ثمانين نظريَّة أخلاقيَّة تتنافس للحصول على القبول في عالمنا الحديث. لم يعد الأمر مجرَّد مسألة «فعل الشيء الصحيح» ولكن معرفة ما هو الشيء الصحيح. يولِد هذا التكاثر في الخيارات الارتباكَ في عالمنا، وبالنسبة لكثيرين، يولِد شعورًا باليأس. هل سنتوصَّل في يوم من الأيَّام إلى إجماعٍ ثقافيٍّ يعمل على استقرار رمال التعدُّديَّة المتحرِّكة؟

قد يتركك كلُّ هذا الحديث عن «نظريَّات الأخلاق» باردًا. ولكن، تتدخَّل القرارات الأخلاقيَّة في كلِّ جانب من جوانب حياتنا. لا يوجد مجال أو مهنة محصَّنة ضدَّ الأحكام الأخلاقيَّة، ففي السياسة وعلم النفس والطبِّ، تُتَّخذ القرارات الأخلاقيَّة بانتظام. الإجراءات التشريعيَّة والسياسة الاقتصاديَّة والمناهج الأكاديميَّة

والنصائح النفسيَّة، كلُّها تنطوي على اعتبارات أخلاقيَّة. يمثِّل كلُّ صوت يُدلَى به في صندوق الاقتراع قرارًا أخلاقيًّا.

على أيِّ أساس ينبغي أن نقرِّر هذه القرارات؟ من هنا تأتي «النظريَّات الأخلاقيَّة». قد يقول الشخص المسيحيُّ: «ببساطة، أنا أطيع كلمة الله». ولكن، ماذا عن قضايا لا نجد في الكتاب المُقدَّس بخصوصها وصيَّة تقول ماذا ينبغي أن نفعل؟ هل يمكننا أن نجد في الكتاب المُقدَّس وفي ذات طبيعة الله مبادئ توجِّهنا عبر هذه البقاع الوعرة؟ كيف يمكننا أن نوصِّل هذه المبادئ إلى الآخرين؟ كيف تقف كلمة الله في وجه أكثر من ثمانين معيارًا آخر؟

دعونا نبدأ بالبحث بشكل أعمق في مجال الأخلاق، للنظر في كيفيَّة تعامُل المجتمع مع مثل هذه الأسئلة، ثمَّ سنرى كيف تتناسب مع كلمة الله، وسنسعى لتطبيق تعاليم الكتاب المُقدَّس على عديد من المعضلات الحديثة.

الفصل الأول

الأخلاق والآداب العامَّة

بحسب استخدام الكلمة الحاليِّ، تُستخدَم كلمة «الأخلاق» (*ethics*) بالتبادل مع كلمة «الآداب» (*morality*). يُعتبَر استخدام الكلمتين كمرادفين من الناحية العمليَّة علامةً على الارتباك الذي يتخلَّل المشهد الأخلاقيَّ الحديث. تاريخيًّا، كان للكلمتين معانٍ مميَّزة تمامًا. تأتي كلمة *ethics*، أي أخلاق، من الكلمة اليونانيَّة «إيثوس» (*ethos*)، المشتقَّة من كلمة أصليَّة تعني «المربط»، وهي مكان للخيول. كانت تعبِّر عن الإحساس بالمسكن ومكان الاستقرار والبقاء.

مـن ناحيـة أخـرى، تأتـي كلمـة *morality*، أي آداب، مـن كلمـة *mores*، التـي تصـف الأنمـاط السـلوكيَّة لمجتمـع معيَّن .

الأخـلاق عِلْـمٌ معيـاريٌّ، يبحـث عـن الأسـس الرئيسـيَّة التـي تحـدِّد الالتزامـات أو «الواجـب». إنَّـه علـمٌ يهتـمُّ فـي المقـام الأوَّل بمـا هـو إلزامـيٌّ، وبالمقدِّمـات الفلسـفيَّة التـي تقـوم عليهـا الالتزامـات. أمَّـا الأدبيَّـات فهـي علـمٌ وصفـيٌّ، يهتـمُّ «بكينونـة أو وجـود الشـيء» والدلالـة. تحـدِّد الأخـلاق مـا يجـب علـى النـاس فعلـه، أمَّـا الآداب فتصـف مـا يفعلـه النـاس بالفعـل. الفـرق بينهمـا هـو الفـرق بيـن الطبيعـيِّ والوصفـيِّ.

الأخلاق	**الآداب**
١ - معياريَّة	١ - وصفيَّة
٢ - إلزاميَّة	٢ - دلاليَّة

٣ - واجبات	٣ - الكينونـة والوجود
٤ - مطلقة	٤ - نسبيَّة

عندمـا تقتـرن الآداب بالأخـلاق، يصبـح الوصفـيُّ معياريًّـا ويُبتلَـع الإلزامـيُّ مـن الوضـع الراهـن. يخلـق هـذا نوعًـا مـن «الآداب الإحصائيَّـة». فـي هـذا المخطَّـط، يتحـدَّد مـا هـو صالـح بمـا هـو طبيعـيٌّ، ومـا هـو طبيعـيٌّ يتحـدَّد بالمتوسِّـط الإحصائـيِّ. ويُكتشَـف «المعيـار» بتحليـل الطبيعـيِّ، أو بعـدِّ النـاس. عندئـذٍ يصبـح الانسـجام مـع هـذا المعيـار إلزامًـا أخلاقيًّـا. والعمليَّـة تسـير هكـذا:

الخطـوة الأولـى، نجمِّـع تحليـلاً إحصائيًّـا لأنمـاط السـلوك، مثـل تلـك التـي تشـكِّل جـزءًا لا يتجـزَّأ مـن تقاريـر كينـزي (Kinsey) الرائـدة فـي القـرن العشـرين. إذا اكتشـفنا أنَّ معظم الأشخاص يشتركون

في ممارسة الجنس قبل الزواج، فإنَّنا نعلن أنَّ هذا النشاط «طبيعيٌّ».

الخطوة الثانية، ننتقل بسرعة من الوضع الطبيعيِّ إلى وصف ما هو «بشريٌّ» في الأصل. تُعرَّف الإنسانيَّة من خلال ما يفعله البشر. ومن ثمَّ، إذا كان الإنسان العاديُّ يمارس الجنس قبل الزواج، فإنَّنا نستنتج أنَّ هذا النشاط طبيعيٌّ ومن ثمَّ «جيِّد».

الخطوة الثالثة، التصريح بأنَّ الأنماط التي تحيد عن الطبيعيِّ هي أنماط غير طبيعيَّة وغير إنسانيَّة وغير أصليَّة. في هذا المخطَّط، تصبح العفَّة شكلاً من أشكال السلوك الجنسيِّ المنحرف

وتوضَع وصمة العار على العذراء بدلاً من غير العذراء.

تعمل الآداب الإحصائيَّة بحسب المقياس المنطقيِّ التالي:

الافتراض «أ» - يُحدَّد الوضع الطبيعيُّ من خلال الإحصائيَّات.

الافتراض «ب» - الوضع الطبيعيُّ إنسانيٌّ وجيِّد.

الخلاصة - الوضع غير الطبيعيِّ لا إنسانيَّ وسيِّء.

في هذا النهج الإنسانيِّ للأخلاق، يُعرَّف الخير الأسمى بصفته النشاط الأكثر أصالة في الإنسان. تحقِّق هذه الطريقة شعبيَّة كبيرة عند تطبيقها على بعض المشكلات، ولكنَّها تنهار عند تطبيقها على مشكلات أخرى. على سبيل المثال، إذا أجرينا تحليلاً إحصائيًّا

لتجربة الغشّ بين الطلاَّب أو الكذب بين عامَّة الناس، نكتشف أنَّ غالبيَّة الطلاَّب قاموا بالغشّ في وقتٍ ما، وأنَّ الجميع قد كذب في وقتٍ ما. إذا طُبِّقَت قوانين الأخلاق الإحصائيَّة، فإنَّ الحُكم الوحيد الذي يمكننا تقديمه هو أنَّ الغشَّ خيرٌ إنسانيٌّ أصيل، وأنَّ الكذب فضيلة حسنة النيَّة.

من الواضح أنَّه يجب أن توجَد علاقة بين نظريَّاتنا الأخلاقيَّة وسلوكنا الأدبيّ. بالمعنى الحقيقيّ، معتقداتنا تملي سلوكنا. النظريَّة هي أساس كلّ أعمالنا الأخلاقيَّة. قد لا نكون قادرين على التعبير عن هذه النظريَّة أو حتَّى ندركها على الفور، لكن لا شيء يُظهِر أنظمة قِيَمنا بشكل أوضح من أفعالنا.

تقوم الأخلاق المسيحيَّة على التناقض بين ما هو موجود وما يجب أن يكون. نحن ننظر إلى العالم بصفته

عالمًا ساقطًا، ومن ثَمَّ يصف تحليل السلوك البشريّ الساقط ما هو طبيعيٌّ بالنسبة لحالة الفساد البشريّ غير الطبيعيَّة. الله يدعونا للخروج ممَّا تشير إليه المؤشِّرات بوصيَّته وأوامره. إنَّ دعوتنا هي دعوة لعدم الانسجام، دعوة إلى أخلاقيَّات التغيير التي تحطِّم الوضع الراهن.

عدم اتِّساقٍ خطير

حتَّى في الادِّعاءات النسبيَّة، يظهر عدم اتِّساقٍ خطير. جلبت الستينيَّات من القرن العشرين ثورة في الأدبيَّات إلى ثقافتنا، وكان رأس الحربة فيها اعتراضات الشباب. كان يوجد شعاران يتكرَّران، ويُنشران جنبًا إلى جنب في أثناء هذه الحركة. وقد صوَّر هذان الشعاران التوتُّر القائم: «قُلها كما هي» و«افعل ما تريد».

كانت الصرخة التي تطالب بالحريَّة الشخصيَّة مغلَّفةً «بحقِّ المرء غير قابل للمصادرة» في فعل ما يريد. كان هذا مطلب الحريَّة الشخصيَّة في التعبير عن النفس. ولكن، عندما تحوَّل الهجوم نحو الجيل الأقدم سُمِعَ تناقض غريب صارخ: «قُلها كما هي». يلمِّح هذا الشعار إلى أساس موضوعيٍّ للحقِّ والفضيلة. لم يكن «مسموحًا» للجيل البالغ بأن يفعل ما يريد إذا انحرف ما يريدون فعله عن معايير الحقِّ الموضوعيَّة. طالب أطفال الزهور (الهيبز) بالحقِّ في أن تكون لديهم كعكتهم الأخلاقيَّة وأن يأكلوها أيضًا.

ناورت بي ذات مرَّة أمٌّ مسيحيَّة مرتبكة في موقفٍ استشاريٍّ لا أُحسَد عليه، يمكن أن نعتبرها مونيكا العصر الحديث (والدة أوغسطينوس) والتي كانت

تتألَّم من سلوك ابنها الضالِّ المتمرِّد وغير المؤمن. كان الصبيُّ قد تخلَّى عن توجيهات أمِّه الدينيَّة والأخلاقيَّة المستمرَّة بالانتقال من منزل العائلة إلى شقَّته الخاصَّة. زيَّنَ على الفور شقَّته بجدران سوداء وأضواء قويَّة، ثمَّ زيَّن الغرفة بتجهيزات مصمَّمة للانغماس بشكل متحرِّر في الحشيش وغيره من العقاقير الغريبة. كان كانت احتفالات مليئة بالسكر، دعا إليها على الفور زميل دراسة راغبًا للانضمام إليه في مسكن فاخر. أثار كل هذا رعب أمِّه تمامًا. وافقتُ على التحدُّث مع الشابِّ فقط بعد أن أوضحتُ للأمِّ أنَّ مثل هذا اللقاء من المحتمل أن يولِد مزيدًا من العداء. سوف ينظر إليَّ الشابُّ على أنَّني «بندقيَّة استأجرتها الأمُّ». وافق الشابُّ أيضًا على اللقاء، وقد كان من الواضح أنَّ هذا فقط ليهرب من مضايقات أمِّه له بالكلام.

عندما جاء الشابُّ إلى مكتبي، كان عدوانيًّا بشكل صريح ومن الواضح أنَّه أراد أن ينهي اللقاء بأسرع ما يمكن. بدأت المقابلة بطرح سؤال مباشر: «من أيِّ شيء أنت غاضب؟»

وبلا تردُّد قال متذمِّرًا: «أمِّي».

فتساءلت: «لماذا؟»

«لأنَّ كلَّ ما تفعله هو أنَّها تتشاجر معي. فهي تحاول باستمرار أن تجعلني أبتلع الدين بالقوَّة».

تابعتُ متسائلاً عن نظام القِيَم الذي اعتنقه بدلاً من نظام أمِّه الأخلاقيِّ. فأجاب: «أعتقد أنَّ كلَّ شخص ينبغي أن يكون حرًّا ليفعل ما يريد».

فسألته: «هل يشمل هذا أمَّك؟» فذُهِلَ من السؤال ولم يعِ على الفور ما كنت أهدف إليه. فشرحتُ له أنَّه إذا اعتنق أحد الأخلاقيَّات المسيحيَّة، فبمقدوره أن يدرجني على الفور كحليف له في قضيَّته. كانت أمُّه قاسية، ممَّا أثار غضب ابنها وأصبح غير حسَّاس للأسئلة والمشاعر، وهي مسائل محصورة بالفعل بأخلاق الكتاب المُقدَّس. شرحتُ له أنَّ أمَّه انتهكت الأخلاق المسيحيَّة في عدَّة نقاط حاسمة. ولكن، أشرت إلى أنَّه وفقًا للشروط الأخلاقيَّة الخاصَّة به، لم يكن لديه أيُّ مظلمة شرعيَّة. قلت له: «ربَّما تكون 'مشكلة' والدتك هي مضايقة الأطفال بإرغامهم على ابتلاع الدين غصبًا. كيف يمكن أن تعترض على ذلك؟» إذ أصبح من الواضح أنَّ الشابَّ يريد أن يكون للجميع (وخاصَّةً هو نفسه) الحقُّ في فعل «ما يخصُّه» إلاَّ عندما يصطدم «الشيء» الذي يخصُّ الشخص الآخر «بشيئه».

مـن الشـائع أن نسـمع مـن يعبِّـر عـن حزنـه مـن أنَّ بعـض المسـيحيِّين، ولا سـيَّما المحافظيـن، ملتزمـون بشـدَّة بالمبـادئ الأخلاقيَّـة، بحيـث يصبـح كلُّ شـيء بالنسـبة لهـم مسـألة «أبيـض وأسـود» مـع عـدم وجـود مسـاحة للمناطـق «الرماديَّـة». يعانـي أولئـك الذيـن يصـرُّون علـى الفـرار من اللون الرماديِّ، بحثًا عن ملاذٍ في المناطق المحـدَّدة بدقَّـة باللونيـن الأبيـض والأسـود، مـن تلقيبهـم بألقـاب مثـل «جـافّ» أو «دوجماتـيّ أو متصلِّـب الـرأي». ولكـن، يجـب علـى المسـيحيِّ أن يسـعى إلـى الاسـتقامة ولا يكتفـي بالعيـش فـي ضبابيَّـة دخَّـان اللـون الرمـاديِّ الدائـم. إذ يريـد أن يعـرف أيـن يقـع الطريـق الصحيـح، وأيـن يكمـن طريـق البـرِّ.

يوجـد صـواب ويوجـد خطـأ. والفـرق بينهمـا هـو مجـال اهتمـام الأخـلاق. إنَّنـا نسـعى إلـى إيجـاد طريقـة للعثـور علـى الصـواب بحيـث لا تكـون ذاتيَّـة ولا تعسُّـفيَّة. إنَّنـا نطلـب معاييـر ومبـادئ تتجـاوز التحيُّز أو مجـرَّد الأعراف المجتمعيَّـة. إنَّنـا نطلـب أساسًـا موضوعيًّـا لمعاييرنـا الأخلاقيَّـة. وفـي النهايـة، نسـعى إلـى معرفـة شـخصيَّة الله، التـي تنعكـس قداسـتها فـي أنمـاط سـلوكنا. عنـد الله يوجَـد أبيـض وأسـود واضـح ومطلـق. تكمـن المشـكلة بالنسـبة لنا فـي اكتشـاف الأشـياء التـي تنتمـي إلـى كلٍّ منهمـا. يصـوِّر الرسـم البيانـيُّ التالـي معضلتنـا:

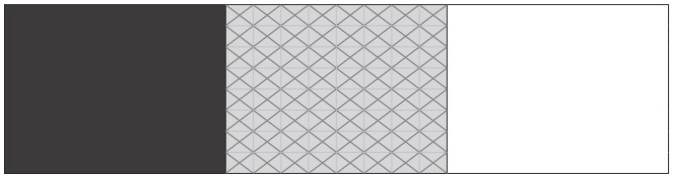

الفضيلة **الخطيَّة**

يمثِّل الجزء الأسود الخطيَّة أو الإثم، ويمثِّل الجزء الأبيض الفضيلة أو البرَّ. فماذا يمثِّل اللون الرماديُّ؟ قد تلفت المنطقة الرماديَّة الانتباه إلى مشكلتين مختلفتين في الأخلاق المسيحيَّة. أوَّلاً، يمكن استخدامها للإشارة إلى تلك الأنشطة التي يصفها الكتاب المُقدَّس بأنَّها محايدة. الأمور المحايدة هي تلك الأشياء المحايدة أخلاقيًّا في حدِّ ذاتها. توضع أمور مثل تناول الطعام المقدَّم للأوثان في هذه الفئة. الأمور المحايدة ليست خاطئة، لكن هناك مناسبات يمكن أن تصبح فيها آثمة. لعب تنس الطاولة، على سبيل المثال، ليس خطيَّة. ولكن، إذا أصبح الشخص مهووسًا بتنس الطاولة لدرجة أنَّه أصبح يهيمن على حياته، فإنَّه يصبح شيئًا خاطئًا بالنسبة لذلك الشخص.

المشكلة الثانية التي تمثِّلها المنطقة الرماديَّة هي التي يهمُّنا أكثر أن نفهمها. هنا، تمثِّل المنطقة الرماديَّة

الارتباك: فهي تشمل تلك الأمور التي لا نكون متأكِّدين فيها من الصواب والخطأ. يلفت وجود اللون الرماديِّ الانتباه إلى حقيقة أنَّ الأخلاق ليست علمًا بسيطًا ولكنَّها علمٌ معقَّد. يُعتبَر العثور على المناطق السوداء والبيضاء شأنًا نبيلاً. لكن القفز إليها بطريقة مبسَّطة هو أمر مدمِّر للحياة المسيحيَّة. عندما نتفاعل مع مناهج الأخلاق السوداء/البيضاء، فقد نقوم بتقييم دقيق لميل بشريٍّ مزعج نحو التفكير التبسيطيِّ. لكن يجب علينا الحذر من القفز إلى استنتاج مفاده أنَّه لا توجد مناطق يكون فيها التفكير الأسود/الأبيض صحيحًا. فقط في سياق الإلحاد يمكننا التحدُّث عن عدم وجود أبيض وأسود. نحن نرغب في توحيدٍ كُفء ومتَّسق، وهو ما يتطلَّب تدقيقًا صارمًا في المبادئ الأخلاقيَّة من أجل إيجاد طريقنا للخروج من ارتباك اللون الرماديِّ.

الاختلافات الأخلاقيَّة الدقيقة

يمكن أن يُستخدَم هذا الرسم البيانيُّ أيضًا لتوضيح الاختلافات الأخلاقيَّة الدقيقة. بتعبيرات كلاسيكيَّة، توصَف الخطيَّة بأنَّها خروج البرِّ عن طوره. يُنظَر إلى الشرِّ على أنَّه نفي أو فقدان أو تشويه للخير. خُلِقَ الإنسان ليعمل في الجنَّة. بالمصطلحات الحديثة، يوصَف مكان العمل بأنَّه غابة. ما الفرق بين الحديقة والغابة؟ الغابة هي مجرَّد حديقة فوضويَّة، حديقة يسودها الجموح.

لقد خُلق الإنسان ولديه طموح ليكون له أهميَّة، وهذه فضيلة. يمكن للإنسان أن يحرِّف ذلك الدافع إلى شهوة السلطة، وهذا أمر رذيل. تمثِّل هاتان النقطتان القطبين في سلسلة متَّصلة. في مرحلة ما، نجتاز الخطَّ الفاصل بين الفضيلة والرذيلة. كلَّما اقتربنا

من هذا الخطِّ، كلَّما صعب علينا أن ندركه بوضوح، وكلَّما واجهت عقولنا المنطقة الرماديَّة الضبابيَّة.

في أثناء تدريس دورة عن الأخلاق لرجال دين يعملون على درجة الدكتوراه في الخدمة، طرحتُ المعضلة الأخلاقيَّة التالية: زوج وزوجة مُحتجَزان في معسكر اعتقال، يقيمان في أماكن منفصلة دون اتِّصال بينهما. يقترب أحد الحرَّاس من الزوجة ويطالبها بممارسة الجنس معه، فترفض الزوجة. ثمَّ يعلن الحارس أنَّه ما لم تخضع المرأة لطلبه، فسوف يُطلِق النار على زوجها. فتخضع المرأة. وعند تحرير المعسكر يعلم الزوج بسلوك زوجته فيقاضيها ليُطلِّقها بتهمة الزنا.

ثمَّ طرحتُ هذا السؤال على عشرين من رجال الدين المحافظين: «هل تمنح الرجل الطلاق بسبب الزنا؟» أجاب العشرون بنعم، مشيرين إلى الحقيقة الواضحة

وهي أنَّ الزوجة أقامت علاقات جنسيَّة مع الحارس. لقد رأوا ظروفًا مخفِّفة في الموقف، لكن الوضع لم يغيِّر حقيقة سلوك الزوجة الفاسد.

ثمَّ سألتُ: إذا تعرَّضت المرأة للاغتصاب بالقوَّة، فهل يجوز للزوج رفع دعوى الطلاق على أساس الزنا؟ ردَّ كلُّ العشرين بالنفي. ميَّزَ رجال الدين جميعهم بوضوح بين الزنا والاغتصاب. والفرق هو في نقطة الإكراه في مقابل المشاركة الطوعيَّة. لقد أشرت إلى أنَّ حارس السجن استخدم الإكراه (إجبار الزوجة على الانصياع لئلاَّ يُقتَل الزوج) وسألت عمَّا إذا كان «زنا» المرأة لم يكن اغتصابًا بالفعل.

بمجرَّد إثارة المسألة، غيَّر نصف رجال الدين حُكمهم. وبعد مناقشة مطوَّلة، غيَّر جميعهم تقريبًا رأيهم. أدَّى وجود عنصر القهر إلى إلقاء قضيَّة الزنا في المنطقة

الرماديَّة المرتبكة. حتَّى أولئك الذين لم يغيِّروا رأيهم تمامًا قاموا بتعديل قراراتهم بشدَّة لمراعاة الظروف المخفِّفة، التي نقلت «جريمة» المرأة من منطقة الخطيَّة الواضحة إلى المنطقة الرماديَّة المعقَّدة. واتَّفقوا جميعًا على أنَّه إذا كانت خطيَّة، فهي أقلُّ خطيَّة من الزنا المرتكَب «مع سبق الإصرار».

كان وجود اختلاف دقيق بين الفضيلة والرذيلة هو الاتِّجاه الرئيسيُّ لتعاليم يسوع في الموعظة على الجبل. كان يعلِّم مبدأ تعقيد البرِّ وتعقيد الخطيَّة. اعتنق الفرِّيسيُّون فهمًا مبسَّطًا للوصايا العشر. كانت أحكامهم الأخلاقيَّة سطحيَّة وبالتالي مشوَّهة. لقد فشلوا في فهم فكرة الاختلافات الدقيقة.

قرأت ذات مرَّة مقالاً بقلم طبيب نفسيٍّ بارز انتقد تعاليم يسوع الأخلاقيَّة. إذ أعرب عن دهشته

من أنَّ العالم الغربيَّ كان يمتدح يسوع جدًّا باعتباره «معلِّمًا عظيمًا». وأشار إلى الموعظة على الجبل (متى ٥-٧) كما لو كانت صالة العرض الأولى لغباء تعليم يسوع الأخلاقيِّ. وسأل لماذا نمدح حكمة معلِّم رأى أنَّه من الخطأ أن يشتهي الرجل امرأة وأنَّ هذا بنفس درجة ارتكاب الزنا معها. وتساءل كيف يمكن للمعلِّم أن يجادل بأنَّ مَن غضب على إنسان أو أسماه أحمق فهذا أمر شرِّير مثل قتله بالضبط. ثمَّ قام بتفصيل الفرق بين الأذى الذي تسبِّبه الشهوة مقابل الزنا، والأذى الناجم عن القذف والتشهير مقابل القتل.

يجب أن يكون الردُّ على الطبيب النفسيِّ واضحًا. لم يعلِّم يسوع أنَّ الشهوة كانت شرِّيرة مثل الزنا أو أنَّ الغضب شرِّير كالقتل. (للأسف، قفزَ عديدٌ من المسيحيِّين إلى نفس النتيجة الخاطئة التي توصَّل

إليها الطبيب النفسيُّ، ممَّا أدَّى إلى حجب قصد تعاليم يسوع الأخلاقيَّة وصبغها بالغموض).

كان يسوع يصحِّح وجهة النظر التبسيطيَّة التي يتبنَّاها الفرِّيسيُّون عن الناموس. فقد اعتنقوا فلسفة «كلُّ شيء ما عدا» في فنِّيَّات الأخلاق، مفترضين أنَّهم إذا تجنَّبوا البعد الأكثر وضوحًا الذي تقصده الوصايا، فقد نفَّذوا الناموس. مثل الشابِّ الغنيِّ، كان لديهم فهم تبسيطيٌّ وخارجيٌّ للوصايا العشر. فلأنَّهم لم يقتلوا أيَّ شخص في الواقع، ظنُّوا أنَّهم حفظوا الناموس بشكل مثاليٍّ. أوضح يسوع الآثار الأوسع للناموس أو تعقيداته. «لا تقتل» تعني أكثر من الامتناع عن القتل. إنَّها تحظر كلَّ الطرق التي تؤدِّي إلى القتل. كما أنَّها تشير إلى فضيلته المعاكسة: «يجب أن تعزِّز الحياة». في تلك الفروق الدقيقة، نرى النطاق التالي:

الرذيلة ---------- الفضيلة

القتل - الكراهية - التشهير ---------- إنقاذ الحياة

إيذاء الحياة ---------- تعزيز الحياة

سلسلة متَّصلة مماثلة تنتقل من رذيلة الزنا إلى فضيلة العفَّة. وبينهما توجد فضائل صغرى وخطايا صغرى، لكنَّها لا زالت فضائل وخطايا مع ذلك.

كشفت تعاليم يسوع عن روح ونصِّ الناموس. فمثلاً التشهير لا يقتل الجسد ولا يترك الزوجة أرملة والأطفال يتامى، لكنَّه يدمِّر السمعة الطيِّبة للرجل، ممَّا يحرمه من جانب جودة الحياة. التشهير يقتل الرجل «في روحه». أصبح الفرِّيسيُّون حرفيِّين قاسيين، فتجاهلوا روح الناموس وفاتتهم الدائرة الأوسع التي تمسُّ تعقيدات خطيَّة القتل.

درجات الخطيَّة؟

إنَّ الحديث عن الاختلافات الأخلاقيَّة الدقيقة أو تعقيدات البرِّ والشرِّ يعني إغراقنا في الجدل بخصوص درجات الخطيَّة والاستقامة. يعلِّمنا الكتاب المُقدَّس أنَّنا إذا أخطأنا ضدَّ نقطة واحدة من الناموس، فإنَّنا نخطئ ضدَّ الناموس بأكمله. ألا يعني هذا أنَّ الخطيَّة خطيَّة، وأنَّه لا توجد درجات في النهاية؟ ألم تتنصَّل البروتستانتيَّة من تمييز الروم الكاثوليك بين الخطايا المميتة والخطايا العرضيَّة التي يمكن غفرانها؟ هذه هي القضايا التي تظهر على السطح بمجرَّد أن نبدأ في الحديث عن درجات الخطيَّة.

بالتأكيد يعلِّم الكتاب المُقدَّس أنَّنا إذا أخطأنا ضدَّ نقطة واحدة من الناموس فإنَّنا نخطئ ضدَّ الناموس بأكمله (يعقوب ٢: ١٠)، ولكن يجب ألاَّ نستنتج من هذا أنَّه

لا توجد درجات من الخطيَّة. الخطأ في حقِّ الناموس هو خطأ في حقِّ إله الناموس. عندما أنتهكُ نقطة واحدة من شريعة الله، فأنا أضع نفسي في تعارض مع الله نفسه. هذا لا يعني أنَّ الإثم ضد نقطة واحدة من الناموس يعادل الإثم ضد خمس نقاط من الناموس. في كلتا الحالتين، أنا أخرقُ الناموس وأسيءُ إلى الله، لكن تواتر انتهاكي أكبر بخمس مرَّات في الحالة الثانية عمَّا هو عليه في الحالة الأولى.

صحيح أنَّ الله يأمر بالطاعة الكاملة للناموس كلِّه، حتَّى إنَّني أصبح عرضة لدينونته بارتكاب خطيَّة واحدة. أخفُّ خطيَّة تعرِّضني لغضب الله، لأنَّني في أصغر هفوة مذنب بخيانة كونيَّة. بأقلِّ قدر من التعدِّي، أضع نفسي فوق سلطان الله، وأهين جلاله وقداسته وحقَّه السياديَّ في أن يحكمني. الخطيَّة

عمل ثوريٌّ يسعى فيه الخاطئ إلى خلع الله من فوق عرشه. الخطيَّة هي وقاحة الغطرسة المطلقة من حيث إنَّ المخلوق يتباهى بحكمته الخاصَّة فوق حكمة الخالق، ويتحدَّى القدرة الإلهيَّة بالعجز البشريِّ، ويسعى إلى اغتصاب السلطة الشرعيَّة لربِّ الكون.

صحيح أنَّ البروتستانتيَّة التاريخيَّة رفضت مخطَّط الروم الكاثوليك الخاصَّ بالخطايا المميتة والعرضيَّة. ولكن، الرفض لا يقوم على رفض درجات الخطيَّة. جادل جون كالفن، على سبيل المثال، بأنَّ كلَّ الخطايا مميتة بمعنى أنَّها تستحقُّ الموت بحقٍّ، ولكن لا توجد خطيَّة مميتة بمعنى أنَّها تضيِّع نعمة التبرير. كانت توجد اعتبارات أخرى غير درجات الخطيَّة بالنسبة للرفض البروتستانتيِّ للتمييز بين الخطيَّة المميتة والعرضيَّة. حافظت البروتستانتيَّة التاريخيَّة على التمييز بين الخطايا العاديَّة والخطايا التي تُعتبَر جسيمة وشائنة.

أوضح سببٍ بالنسبة للاحتفاظ البروتستانتيِّ بدرجات الخطيَّة هو أنَّ الكتاب المُقدَّس يزخر بمثل هذه التدرُّجات. كان لشريعة العهد القديم تمييز وعقوبات واضحة لمختلف الأفعال الإجراميَّة. بعض الذنوب كان يُعاقَب عليها بالإعدام، والبعض بعقوبات جسديَّة، والبعض بغرامات. في نظام العدالة الجنائيَّة اليهوديِّ، مُيِّزَ بين أنواع القتل بطريقة تتوافق مع الفروق الحديثة مثل القتل من الدرجة الأولى والثانية، والقتل عن قصد والقتل الخطأ.

يذكر العهد الجديد بعض الخطايا التي، إذا استمرَّت بلا مبالاة، تتطلَّب إسقاط الشركة المسيحيَّة (١كورنثوس ٥). وفي الوقت نفسه، يؤيِّد العهد الجديد نوعيَّة المحبَّة التي تستر كثرة من الخطايا (١بطرس ٤: ٨). تكثر التحذيرات بشأن

الدينونة المستقبليَّة التي ستأخذ في الحسبان كلاً من عدد (كميَّة) وخطورة (نوعيَّة) خطايانا. يتحدَّث يسوع عن أولئك الذين سيحصلون على كثيرٍ من الضربات والذين سيحصلون على القليل منها (لوقا ١٢: ٤٤-٤٨)؛ كما تكلَّم عن الدينونة الأكبر نسبيًّا التي ستحلُّ على كورزين وبيت صيدا مقارنةً بسدوم (متى ١١: ٢٠-٢٤)؛ ودرجة المكافآت الأكبر والأصغر التي ستُوزَّع على القدِّيسين. يحذِّر الرسول بولس أهل رومية من تكديس الغضب في يوم غضب الله (رومية ٢: ٥). تشير هذه وعيدٌ من المقاطع الأخرى إلى أنَّ دينونة الله ستكون عادلة تمامًا، إذ تقيس العدد والخطورة والظروف المخفِّفة التي تصاحب كلَّ خطايانا.